حضرموت من الناحية الاقتصادية

بقلم «س» فى كلية التجارة بجامعة فاروق الأول

يعتقد الكثير أن حضرموت قطر فقير بحجة هجرة أغلبية سكانه إلى الخارج . وهذا اعتقاد باطل بدليل قيام المدنيات والحضارات المعينية والسبائية والحميدية فى الأجزاء الجنوبية للجزيرة ، مما يقوم دليلا على حيوية هذه البلاد من الناحية الاقتصادية إذ لا يجوز عقلا قيام مثل هذه المدنيات دون أن يكون لها سند من العوامل الاقتصادية تقوم عليها أركانها .

الجغرافية الزراعية

تقع حضرموت على الساحل الجنوبي للجزيرة العربية وحدودها البحر العربى فى الجنوب وصحراء الربع الخالى فى الشمال وبلاد عمان فى الشرق واليمن ومحمية عدن فى الغرب وسطحها سلسلة من الجبال تمتد من الجنوب إلى الشمال الشرقى وتلتقى بسلسلة أخرى تتفرع من هضبة اليمن متجهة نحو الشمال الشرقى أيضا ثم تنحدر هذه السلاسل نحو الجنوب الشرقى وارتفاعها يقل تدريجيا كلما اتجهت نحو الجنوب الشرقى ولذلك نجد مياه الأمطار تسير فى اتجاه من الشمال الغربى إلى الجنوب الشرقى وتتجمع مياه السيول فى بطون الوديان الجنوبية الشرقية وبعضها يصب فى البحر العربى ولذلك نجد الوديان الخصبة هي تلك التى تقع فى الجنوب الشرقى من حضرموت مثل وادى حضر موت الذي تقوم فيه أكبر المدن وتنتشر على جوانبه حقول النخل والمزارع .

ويروى الفلاح أرضه بالمياه التى ترفع من الآبار بواسطة البقر والحمير والجمال وهى طريقة عقيمة لأنها تسبب هلاك المواشى وتنهك قواها فضلا عن أنها لا ترفع كمية وافرة من المياه . وأرض الوديان على العموم خصبة ومشبعة بأملاح

معدنية مذابة من سفوح الجبال فى بطون مياه الأمطار ، وكان قدماء الحضرميين قد أنشأوا سدودا لحجز مياه الأمطار كسد مأرب الشهير . ونظرية السدود هذه بسيطة إذ يساعد على إنشائها التكوين الجبلى لحضر موت .وفى بعض الجهات عيون تتفجر منها المياه المعدنية ويستغلها سكان هذه المناطق في ارواء أرضهم ولكنه استغلال ضئيل كما فى غيل باوزير حيث يزرع الأهالى الغلال والتبغ (الحمي) للشهور وبعض الفواكة كالموز والمنجو . وفى أقصى الحدود الغربية لحضرموت يوجد نهر دائم الجريان فى واد حجر اسمه نهر ميفع طوله ٢٠٠ ميل ويصب فى البحر العربى غير أن سكان هذا الوادى من البادية الذين لا يميلون للاستقرار وحياة الحرث والزرع ، وأرض هذا الوادى خصبة جيدة .

الثروة المعدنية

لم تدرس حضرموت دراسة جيولوجية دقيقة وقد قامت عدة بعثات بريطانية خلال السنين العشر الأخيرة بدراسة بعض المناطق من الناحية الجيولوجية غير أن أبحاثها بقيت فى طى الكتمان ولم تنشر بعد . وقد قام الأستاذ ليتلل مدرس علم الجيولوجيا بجامعة فؤاد بزيارة قصيرة للساحل الجنوبى لحضرموت سنة ١٩١٩ وقرر أنه توجد عروق للذهب والفحم والنحاس فى الجبال الساحلية وذكر جون فيلبى فى كتابه Sheaba's Daughter وجود مناجم لأملاح الصوديوم — ملح الطعام — وأملاح الفوسفات فى مدينة شبوة التى كانت عاصمة الدولة المعينية وقد اكتشف جون فيلبى وفريا ستارك Frya stark هذه المدينة ويوجد بها حوالى ٦٠ معبدا أثريا لاتزال بقاياها قائمة إلى الآن . واكتشفت بعثة انجليزية أخيرا منابع بترول فى شبوه وقام من أجلها خلاف بين بريطانيا وإمام اليمن كل يدعى أنها داخلة فى منطقة نفوذه . والحقيقة التى لا غبار عليها

أن شبوة بلد حضرمى من قديم الزمان بدليل ان أفراد قبائل شبوة الحاليين يمتون إلى قبائل حضر موت بصلة فى النسب والعادات والتقاليد ومنهم قبيلة آل بريك .

التجارة

تتميز التجارة فى حضرموت في العهود القديمة بظاهرتين وهما طرق القوافل وتجارة البخور . فقد كانت بضائع الهند أول مرحلة لها إلى الشام موانى حضرموت وكذلك لقرب حضرموت من قارة الهند . فكانت القوافل تقوم فى فترات متوالية من حضر موت إلى اليمن فالحجاز ثم إلى الشام. وأما تجارة البخور فقد كانت موردا اقتصاديا سخيا لحضر موت فكانت تمون بها بلاد الشام والهند ومعابد بابل بالعراق وذكرت مس فريا ستارك فى كتابها The Southern Gates of Arabia أرقاما احصائية لصادرات البخور من حضرموت إلى بابل .

السكان وهجرتهم

لم يقم احصاء رسمى لسكان حضرموت ولكنهم يبلغون على وجه التقريب ٥٠٠ ألف نسمة بما فيهم المهاجرون . وقد اعتاد الحضرميون الهجرة من بلادهم منذ العصور التاريخية فقبائل كنده فى نجد وغيرها فى الحجاز كانت تقطن الأجزاء الجنوبية للجزيرة وذكر امرىء القيس فى شعره مدينتين بحضرموت كانتا زاهيتين بالشعراء والسمار :

كانى لم أسمر بدمون مرة ولم أشهد الغارات يوما بعندل

ومدينة دمون هذه ذكرتها فريا ستارك بأنها تقع فى الشمال من حضرموت

وكذلك عندل. وتمتاز مدن حضرموت بطابعها الهندسي الحميري هكذا وصفها فاندن مولن الوزير المفوض لهولنده بجدة في كتابه Hadraumaut . ونشطت الهجرة في عصر الاسلام وازدادت نشاطا في القرن التاسع عشر فغزا أبناء حضرموت شرقي أفريقيا والحبشة واريتريا واليمن والحجاز واتسع نطاق هجرتهم إلى جزائر الهند الشرقية والهند ويرجع إليهم الفضل في دخول الاسلام بجزائر أندونيسيا أو على الأقل في توطيد أركانه بتلك الجزائر. ويمتاز الحضرميون بنشاطهم التجاري وهم يسيطرون على الأسواق التجارية في الحجاز والحبشة وجزائر أندونيسيا. وهم يتصفون بالأمانة وحسن المعاملة وعفة النفس والجلد غير أنه يغلب عليهم الجمود الفكري وغلوهم في المحافظة على التقاليد .

الحالة السياسية :

كانت حضرموت منذ القرن الثامن عشر تخضع لقبائل يافع والكثير وكان بين هاتين القبيلتين عداء مستحكم قديم من جرائه طوت الحروب بينهما عددا من النفوس . وقد أنشأت قبيلة يافع حكومة على الساحل عاصمتها المكلا وهي الدولة القعيطية أما دولة الكثير وهي الكثيرية فكانت أقدم من الدولة القعيطية بقرون ولم يبق لها الآن من النفوذ إلا القليل في وادي حضرموت وعاصمتها سيون في الداخل . وكان نفوذ سلاطين هاتين الدولتين إلى عهد قريب لا يتعدى أسوار المدن أما الضواحي والوديان والجبال فكانت مسرحا للقتل والنهب بين أفراد القبائل من حملة السلاح . وكانت بريطانيا في عدن لا تفكر إن تدخل حضرموت في منطقة نفوذها كما فعلت بالمناطق الغربية من عدن كلحج وشقرة وأبين وذلك لبعد حضرموت عن عدن ولم تر في تلك الفوضى بحضرموت ما يهدد سلامة حصنها عدن أو يؤثر على مواصلاتها المرتبطة بها .

غير أنه قبيل الحرب العالمية الثانية قامت إيطاليا بمناورة سياسية تستهدف الوصول إلى المحيط الهندى بانشاء ميناء حربى فبادرت بريطانيا إلى عقد معاهدة بينها وبين سلاطين حضرموت وضمت بمقتضاها البلاد تحت الحماية البريطانية مباشرة وعينت مراقبا سياسيا فى المكلا هو المستر انجرامس واستطاع أن يقضى على أيدى الفساد والعبث بالأمن فى فترة قصيرة وذلك لما قام به من أعمال العنف والارهاب وضرب القبائل الثائرة بالقنابل من الطائرات . غير أنه على الرغم من نجاح موظفى بريطانيا فى الأعمال الارهابية واستقرار الأمن فانهم لم ينجحوا فى مشروعاتهم الاقتصادية لتنمية حالة البلاد ورفاهيتها كانشاء السدود واقراض الفلاحين وإنشاء خطوط المواصلات بين مدن الساحل والمدن الداخلية وذلك لسوء الادارة المشرفة على المرافق وجهل رجالها بالشئون الادارية الصحيحة .

وأخيرا حاول الانجليز انقاذ المحاولة بإنشاء اتحاد بين الدولتين Federation غير أن هذ المشروع فشل لعدم توفر العناصر العملية فيه والتمهيدات الأولية لربط الدولتين بعلاقة اقتصادية تتبادل فيها المنافع الاقتصادية على قدم المساواة ، ومحاولة إزالة الضغائن القديمة بينها والكامنة فى نفوس أفراد كل منهما .

وقد ظهر أخيرا أيضا بعد فشل هذا المشروع مشروع آخر أكثر تعميما من الأول وذلك هو انشاء اتحاد عام يشمل المحميات الجنوبية كلها وقد تزعم هذا المشروع سلطان لحج ولا نظن أن مثل هذا الاتحاد يمكن تحقيقه لعدم قيام أى علاقة بين المحميات فيما بينها سواء كان من الناحية الاجتماعية أو الاقتصادية .